

التمثلات السياسية للنخب الثقافية والسلطة بالجزائر في عهد الدايات 1671-1830م

طوبال فاطمة الزهراء،

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية - جامعة وهران 1،

toubal.zhor81@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2018/12/25؛ تاريخ القبول: 2019/01/26

The Political Representations of the Cultural elites and the Authority in Algeria in the Daiyat Age 1671-1830

TOUBAL fatima azohra

Abstract: In this study, we want to highlight the political role of the elite of the social strata that emerged in Algeria in the era of the Daiyat and the influence of the Ottoman presence on them and whether these middle classes represented the Algerian society or were merely a tool used by the authorities to serve their internal interests.

Although the research on the subject of the elite does not negate its impact on the surrounding political influences because they are part of the general context, we saw a radical re-examination of the dismantling of political representations of the cultural elite and power and correct the course of historical reality, which has been strongly studied.

key words: The elite; the authority; the political approach; the historical approach; the emotional mobilization; the honorable families.

المخلص:

نريد من خلال هذه الدراسة، تسليط الضوء على الدور السياسي لنخبة من الشرائح الاجتماعية التي برزت في إيالة الجزائر في عهد الدايات وعلى أثر التواجد العثماني عليها وعن ما إذا كانت هذه الطبقات الوسطى قد مثلت فعلا المجتمع الجزائري أو أنها كانت مجرد أداة سخرتها السلطة لخدمة مصالحها الداخلية

ورغم أن البحث في موضوع النخبة لا ينفى عنها تأثيرها بما يحيط بها من مؤثرات سياسية لأنها جزء من سياق عام، ارتأينا إعادة نظر جذرية في تفكير التمثلات السياسية للنخبة الثقافية والسلطة وتصحيح مسار الواقع التاريخي الذي أسينت دراسته بقوة.

الكلمات المفتاحية:

النخبة؛ السلطة؛ التمثلات السياسية؛ المقاربة التاريخية؛ التعبئة العاطفية؛ الأسر الشريفة.

مقدمة:

اختلفت رؤى المؤرخين في توضيح الدور السياسي للنخب الثقافية في فترة الدايات، إذ تتمثل إشكالية هذا البحث في دراسة طبيعة علاقة النخبة الثقافية بتوجيه الرأي العام في ظل تنظيم مستلهم من نموذج السلطة العثمانية خلال فترة (1671-1830م) و سيسعنا في هذا المجال طرح التساؤلات التالية: ما طبيعة التحول في العلاقة بين النخبة الثقافية و السلطة؟ وعلى أي أساس قامت هذه العلاقة؟ وفيما حددت منطلقات تصوراتها؟

ولتوضيح ذلك وجدنا بأن هذه الدراسة تعتمد على التحليل التاريخي للتفكير الاجتماعي الثقافي و السياسي لهذا تحتم طبيعة البحث الإعتداد على المنهج التاريخي العلمي التحليلي النقدي وذلك بتتبع الجذور التاريخية للموضوع وممارسة النقد للكشف عن الظروف التي مرت بها النخب الثقافية بالجزائر العثمانية في عهد الدايات ورصد الأحداث إضافة إلى المنهج التاريخي الوصفي والذي يكون فيه

العمل على إبراز وشرح قضية النظام الحاكم في فترة زمنية محددة (عهد الدايات) كظاهرة سياسية تجلت بالمجتمع الجزائري.
النخب والتعبئة العاطفية:

شكلت التعبئة العاطفية الجهادية آنذاك نموذجا مؤثرا في حياة العامة بكل جوانبها الثقافية والسياسية، وأبرز مثال على ذلك قصائد الشاعر محمد بن محمد بن علي ابن أقوجيل (أنظر التعليق رقم1) (عائشة بن نور، 2014: 244) و التي كانت سببا في استثارة العواطف النفسية (أبو القاسم سعد الله، 1998: 256) إذ استحث السلطة على الجهاد قائلا:

جهز جيوشا كالأسود وسرحن... تلك الجواني في عباب بحور

أضرم على الكفار نار الحرب لا... تقلع ولا تمهلم بفتور

وبقربنا وهران ضرس مؤلم... سهل اقتلاع في اعتناء يسير

كم قد أدت من مسلمين وكم سبت... منهم بقهر أسيرة وأسير

وقد تم التحرير الأول لوهران بعد ست سنوات من توجيه ابن أقوجيل هذه القصيدة للداي أحمد باش خوجة (بسام العسلي، 1986: 178)، و ذلك في عام 1708م بعدما أمر الداوي بكداش، الباي مصطفى بوشلاغم بتحرير وهران وللإشارة فلقد استعان هذا الأخير برجال الدين وكذا تلاميذ المدارس القرآنية لطرده الإسبان من المنطقة (أبو القاسم سعد الله، 1998: 257).

فهذه المرجعية الأساسية تعرف كتعبئة جهادية حماسية مهدت لحركية التوافق بين السلطة والنخب الداعمة لها وبين النخبة كوسيط سياسي والمجتمع الذي انبثقت منه حركات جهادية انسجامية ثم حركة متفاعلة مع القوانين التي تمثل نفوذ السلطة وتوغلها بالجزائر.

ولما استعاد الداوي بكداش وهران، تمتع الشعراء بحضور فاعل في المشهد السياسي واتخذته السلطة كوسيلة لتعصم بها نفوذها إنتاجا وهوية ومن ذلك ما أورده أبو عبد الله سيدي محمد التغيريري إذ يقول (بن عودة المزاري، 1996: 236):

الحمد لله الذي فتحا	وهران عن أيدي الرجال الصلحا
وقهر القوم الليام الفجرة	ورفع الإسلام فوق الكفرة
محمد بكداش فخر الدولة	وحسن صهره عالي الصولة

كما أورده محمد بن أحمد الحلفاوي التلمساني أرجوزة جاء فيها (بن عودة المزاري، 1996: 237):

والحازم العارف باي مصطفى	وهو من الأقبال قايف مصطفى
ثمت نادى بالجهاد في الورى	مقدما ما كان عندهم ورى
فسارع الناس له إذ طلبه	لا سيما جماعة من طلبه

وهناك تعبئة أخرى أساسية من دعائم السلطة التي تمثلت في التعبئة العاطفية الدينية واستقرت في مجموعة من العلماء، ذلك لأن الموقف آنذاك كان يستدعي إشراك هذه الفئة في عملية التحرير العسكري للمنطقة ومن جملتهم فئة المفتيين الذين وجهت لهم أوامر قانونية لإصدار فتاوى تتطابق مع المؤثرات الداخلية للإيالة (عبد القادر بن عبد الله بن محمد المشرفي الغريسي، ب س: 38) وتلك التي صار من الصعب جدا السيطرة عليها من طرف السلطة دون تدخل هذه الفئة لتحفيز السكان المحليين على الجهاد، ومن العلماء الرواد الذين أقدموا على هذه الخطوة الشيخ عبد القادر المشرفي (عادل النويهض، ب س: 303) الذي أصدر فتوى عام 1764م ضمها كتابه المعنون بـ«بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإشبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر» (عبد القادر بن عبد الله بن محمد المشرفي الغريسي، ب س: 12)

في هذا الكتاب ينتقد المشرفي أهم القبائل التي كانت متعاونة مع الاحتلال الإسباني موضحاً أهم أسباب هذا التعاون والتي حصرها في الاعتقاد الذي كان سائداً عند السكان المحليين الذين كانوا يعتبرون أن هذا النوع من الاحتلال يجلب لهم النفع ومن تلك القبائل يشير المشرفي إلى قبيلة كريشتل (عبد القادر بن عبد الله بن محمد المشرفي الغريسي، ب س: 12-14) الذين كانوا يتجسسون كثيراً لصالح الإسبان وتم تلقيبهم بالمغاطيس ناهيك عن قبيلة شافع وهم من بني عامر إضافة إلى بنو يعقوب، ومنهم من كانت ذات جيش قوي تدعم به الإسبان كقبيلة بنو عامر التي يحصيها المشرفي بعشرة آلاف فارس (عبد القادر بن عبد الله بن محمد المشرفي الغريسي، ب س: 14-37)، وإذا كنا نتعرض الآن لهذا النوع من الوقائع فإنه من المهم جداً أن نشير إلى أبرز النخب التي ساهمت في الحد من هذه الأحداث فقبل أن يصدر المشرفي فتواه عمل أحمد بن القاضي بن عبد الله بن أبي محلي السجلماسي المساوري (أنظر التعليق رقم 2) (حفناوي بعلي، 2016: 146) على كتابة نظم شعري يطالب فيه بني عامر بالتوقف عن تعاونها مع الإسبان.

وليس من هدفنا إحصاء كل ما نظمته الشعراء وأفتى به الفقهاء في هذا الشأن فقد تكفلت بذلك المصادر المحلية والمؤلفات التاريخية غير أننا نود أن نبرز بأن إنتاجات النخب الثقافية من شعراء وفقهاء ورجال دين هي التي كان لها القدرة على تعبئة القبائل وكل السكان المحليين من حضر وريفين وهذا شيء بديهي، خصوصاً إذا لمسنا خصائص الخطابات التي كانت توجه لهم منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر إلى غاية نهاية القرن الثامن عشر وهكذا فالسلطة العثمانية لم تكن لها القدرة التعبوية إلا عن طريق النخب المثقفة الذين كانوا بمثابة وسطاء سياسيون لدرجة أن السلطة صارت تمنح للبعض منهم سمّة تقديسية وهذا ما سنطرق إليه بالتفصيل لاحقاً، ومعلوم لدينا أن الهدف من هذا التقديس هو الحصول على الشرعية والمكانة الشرفية في قلوب القبائل المحلية.

إن تراجع المقاومة عند بعض القبائل ضد الاحتلال أودى بتخلي السكان المحليين نهائيا عن فكرة الجهاد الأمر الذي أدى بالفقهاء و المفتين إصدار فتوى تحثهم على القتال في سبيل الله حتى لايتسنى لإسبانيا أن تبسط نفوذها في الجزائر(ابن سحنون الراشدي، 2013) لأنه صار من الواضح جدا أن القوة القبلية المتكافئة كسرت إرادة المحليين وبالتالي خلقت الفتوى التي أصدرها المشرفي استجابة عدد كبير من السكان المحليين للتكتل في شكل جيوش مقاومة، فمنذ إصدار المشرفي لفتواه تضاعفت الثقة بالعلماء ورجال الدين على إدراك ضرورة تحرير وهران وتوقيف الهدنة بينهم وبين الإسبان، وصار لرجال الدين من المقاومين شرعية عسكرية جسد مشروعها الباي محمد بن عثمان الكبير لما أخضع العلماء والمرابطون لسلطته في فتحه الثاني لمدينة وهران ضد الاحتلال الاسباني عام 1792م (ابن سحنون الراشدي، 2013: 186-199)، إذ عين الشيخ محمد الخروبي الجيلاني القلعي رئيسا لرباط إيفري بوهران (ابن سحنون الراشدي، 2013) وهو أديب وقاض حيث توارثت أسرته القضاء في هذه المرحلة (عائشة بن نور، 2014: 54) كما عين مصطفى بن عبد الرحمن الدحاوي مساعدا له والذي واكب الباي محمد الكبير وشارك في فتح وهران وكان له في ذلك مؤلفه الرحلة القمرية (ابن زرفة أبو محمد بن المصطفى، بدون) ناهيك عن مساعدين آخرين من بينهم محمد بن محمد بن حواء الذي كان قد تولى قضاء معسكر ثم أوكل له الباي مهمة الرباط على جبل المائدة (عائشة بن نور، 2014: 123) وكان قد استشهد هناك قبل إتمام عملية فتح وهران عام 1790م (عائشة بن نور، 2014: 109-110) وساعده ابن سحنون الراشدي الذي كان الكاتب الخاص للباي محمد الكبير والذي سجل أحداث الفتح وشرحا نظما ونثرا (عائشة بن نور، 2014: 128)

وهكذا عبرت السلطة، في هذه الظروف عن حاجتها لأولئك الذين يمتلكون القدرة التعبوية في استثارة عواطف المجتمع لتجاوز مشكل الغزو، إذ أن السلطة آنذاك أثناء محاولاتها بسط النفوذ والسيطرة

كان لابد لها من التقرب إلى الطبقة المسيطرة في البنيات التحتية للمجتمع، والذي نعينه هنا أن العامة لا تستجيب عاطفيا لأي اتجاه بقدر ما تحركها النوازع الدينية والجهادية في التفاعل مع أي حدث.

والواضح من هذه الفترة الانتقالية قد وضعت توازنا تاما بين نظام السلطة الروحية و الزمنية وفق مفهوم القوة المتمثلة في سلطة الدايات المسيطرة على المجتمع آنذاك إلا أن جل الكتابات المتخصصة في التاريخ الحديث تربط هذه القوة بنظرتها السياسية حيث تؤسس لنظرية السلطة السياسية الزمنية وخضوع الأهالي للدولة ولل قوانين السياسية والعلاقة التي تتنامى بين المجتمع العثماني التقليدي و الدولة وتستمد أساسا من السلطة الزمنية ولعل الفكر الاجتماعي في العهد الحديث كان فكرا سلطويا استنبط قوته من القوة العاطفية فوجود هذه القوة تحققت قوة السيطرة السياسية وفقا للإستراتيجية التي اعتمدها السلاطين العثمانيين آنذاك وعن طريق خلق مناصب عليا سامية وهذا ما سيأتي توضيحه كما يلي.

الموظفون المساعدون (فئة الكتاب الأربعة أو الخوجاباشي):

تأتي هذه الفئة حسب ماورد في كتابات ناصر الدين سعيدوني في قمة الهرم الإداري والسياسي إذ يصفهم بالموظفين المساعدين (ناصر الدين سعيدوني، 2009: 176) والذين تأتي مرتبتهم بعد الموظفون السامون وهم كتاب الدولة والمترجمين والذين عادة ما كان يتم اختيارهم من جماعة الأشراف ناهيك عن الفئات التي كان لها تمثيل سياسي للسلطة في الأرياف وهنا نخص بالذكر المرابطون وشيوخ الزوايا وزعماء القبائل وهي التي ينعتها أبو القاسم سعد الله بالسلطة الروحية (أبو القاسم سعد الله، 1998: 476) إذ سيتم التطرق إليها فيما بعد.

ولعل التمثل الذي يوضح لنا ذلك هو خلق السلطة لمناصب حساسة في جهاز البايليك لا يرتقي إليها إلا الأعيان من الحضر في المدن أما في

الأرياف فيتولاها الشيوخ والزعماء المحليين وغيرهم ممن أولتهم السلطة عنايتها.

وإذا انتقلنا إلى تصنيف تمثلنا هذا حسب درجة حساسية كل منصب، فقد نجد بأن سلطة البايلك قد أولت اهتماما جد كبير بالكتاب الأربعة الكبار أو الخوجاباشي والذين عادة ما كانت مهامهم التي تحمل صبغة إدارية لها ارتباط بالسياسة ذلك أن الدايات كانوا يتقون في هذه الفئة أكثر من ثقتهم بالموظفين السامين.

هذه الفئة من أبرز ما يتم التأكيد عليه في المصادر التاريخية التي تتحدث عن علاقتها بالسلطة العثمانية، فإنها تصمد أمام الحقائق التاريخية والتي استخلصناها كما يلي:

أنه كان خلق أول منصب للكتاب الكبار في الجزائر مع بداية القرن 18م حيث تم تعيين مجموعة من المثقفين الذين تتوفر فيهم شروط الإمام بالفقه والتشريع الإسلامي و الحسابات لخدمة السلطة ويطلق عليهم بالخوجاباشي وهو لقب يعتبر درجة أدبية معنوية، سببها نشاطات العالم والفقهاء الواسعة في السلطة، وفي الأغلب هذه الشروط لا تتوفر إلا في شيخ الإسلام.

الحرص خاصة أن تكون هذه الفئة من طبقة الكراغلة. بعد خلق منصب الكاتب الأول بعام واحد توالت عملية خلق مناصب أخرى للكتاب الثلاث التابعين له وصار يتم استشارتهم في أمور الدولة والعامية حيث أخذت مكانتهم تعلوا حتى صاروا ذوو وزن بعدما غدت نشاطاتهم العلمية كمؤسسة إدارية.

ويتقدمهم المقطعجي الذي يشترط فيه أن يكون عالما فقيها ويطلق عليه كذلك بالمكتباجي ولكن جرى العرف على أن ينادونه بالأفندي والحقيقة أن هذا النوع من المناصب الحساسة كان لا يتولاها إلا وجهاء المدينة وحسب ما تورده الدراسات فإن المثقفون من فئة الكراغلة كان لهم نصيبا في ارتقائه وعلى رأسهم والد حمدان خوجة (حمدان بن عثمان خوجة، 1982) حيث يقول في كتابه المرأة: «لقد

كان والدي مشرعا وأستاذًا بالقانون، كما أنه اشتغل مقطجي أوكاتباً أول، وهو الذي علمني نظام الحكم التركي» (حمدان بن عثمان خوجة، 1982: 92) إذ أن الكاتب الثاني تمكن من اكتساب لقب وكيل الخرج الكبير لتفانيه العظيم في مراقبة مخازن الدولة وتسجيل مصادر دخلها ابتداء من سنة 1788م، وتجدر الإشارة أن سجلات غنائم البحر تم إسناد تقييدها لوكيل الخرج الصغير الذي يلي المنصب السالف الذكر وهو بمثابة الكاتب الثالث أما الكاتب الرابع ويسمى الرقمجي فيتولى تقييد سجلات مصالح البابلك المتعلقة بالشؤون الخارجية.

ومن الممكن الإشارة عبر كتابات Dubois Thainville أنه مع أواخر القرن الثامن عشر ازدادت أهميتهم وصارت السلطة لا تتصرف في أمورها الداخلية دون الأخذ برأيهم (Dubois Thainville, - (129 : 1929، و يتبادر لدينا من خلال ذلك أن السلطة لم تخلق هذا المنصب إلا في هذه المرحلة التي رأت ضرورة تأسيسه حيث تزامن هذا النفوذ المادي لهذه الفئة مع استغلالها للوازع الروحي إذ أن وجود هذه الفئة وحيازتها على مكانة خاصة لدى الدايات، وهو أمر لا شك في مبالغته إذا أمحصنا النظر وقارناه بمكانة الموظفين السامون الذين سحبت السلطة ثقتهم فيهم، تؤكد شهادة Dubois Thainville وتعطينا فكرة عن الطريقة التي عومل بها هؤلاء خاصة بدمجهم كمستشارين لدى الدايات، على الرغم من كون الموظفين السامون أعلى مرتبة منهم، وهذا ما سنبرزه في النقطة الموالية.

القبائل والأسر الشريفة:

اتفقت المصادر المحلية حول المكانة السياسية التي حظيت بها بعض النخب من قبائل الأشراف والأسر الشريفة في فترة الدايات وغيرها من الفترات التي سبقتها، إذ ركز الدايات في هذه الفترة على تحفيزهم ماديا وذلك بمنحهم مناصب ذات وزن قياسي في السلطة (لزم فوزية، 2013-2014: 731)

حيث يذكر الطيب بن مختار الغريسي المختاري في كتابه القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم استنادا إلى روضة الأزهار والقلائد المشهورة أن من بين قبائل الأشراف التي شكلت أهمية في أواخر فترة الحكم العثماني قبيلة دحو أبي زرفة حيث يقول: «...ولجدهم احترام عند ملوك الأتراك حتى أن بكل محكمة من محكماتهم مسجدا مضافا إليه ومن دخله من أهل المطالب والجنانيات لا يتعرض له... وكانت الرياسة فيهم زمن ولاية الأتراك وأيام الأمير مولانا عبد القادر في بيت السيد الحاج محمد وفي بيت السيد الحاج المكي ابن عبد الله وفي بيت سيدي عبد الرحمان بن حسن وغيرهم» (الطيب بن مختار الغريسي المختاري، 1921: 332) فهذه العائلة (أنظر التعليق رقم 3) التي كانت تشكل فئة هامة من الفئات الرئيسية التي ولجت في المجتمع آنذاك (بلهاشمي بن بكار، 1961: 333) كما هو واضح من أقواله كانت محل ثقة وتقدير تام لدى السلطة نظرا للمكانة التي كانت تحتلها في البنيات الاجتماعية من حيث أنه «كان فيهم أئمة مشاهير كالسيد الحاج عبد القادر بن السنوسي وولده العلامة السيد السنوسي والدراسة الأرضي الإمام المرتضى السيد المصطفى بن عبد الله» (الطيب بن مختار الغريسي المختاري، 1921: 332) لكن عبد الرحمن التوجيني اكتفى بالإشارة إلى أن هذه القبيلة ربطتها مودة عظيمة بينها وبين علي أبو الحسن الشريف (عبد الرحمن بن عبد الله التوجيني، 2005: 17) وهو من الأعيان الذين أولتهم السلطة عنايتها (الطيب بن مختار الغريسي المختاري، 1921: 18-19) وبتقديرها كعنصر فعال من خلال ترجمته لعدد من أنساب الأشراف بمنطقة غريس (الطيب بن مختار الغريسي المختاري، 1921: 30) إلا أن الطيب بن مختار الغريسي المختاري استطرد في تفصيل هذه الفئات التي كان لها دور فعال آنذاك فإلى جانب عائلة سيدي دحو يوضح ذات المؤرخ أن أولاد سيدي أعمر ابن دوبة كان لها شهرة في العلم والرياسة (بلهاشمي بن بكار، 1961: 331) وخاصة تولية الفصل بين الخصوم ويعتبرهم من الشرفاء، ويتبين من المعلومات التي استقيناها من هذا المصدر أن

هؤلاء الشرفاء من القبائل والأسر تجسد استبصار استثنائي في البنية الأساسية للسلطة إذ ظلوا نموذجاً في توريث الوظائف واعتلاء مناصب ذات وزن قياسي في السلطة، حيث إن الأخبار التي يوردها ذات المصدر تؤكد بأن هؤلاء كانوا من رجال الحل والعقد ومن مشاهير علمائهم الذين قربتهم السلطة إليها سيدي أحمد بومعزة وولده سيدي عبد الرحمن ابن أحمد وولد سيدي الطيب بن عبد الرحمن وقد ولى عبد الرحمن القضاء في ولاية الباي حسن آخر أمراء بني عثمان بالجزائر (الطيب بن مختار الغريسي المختاري، 1921: 333).

وحين شرعت السلطة في توطيد علاقاتها بمختلف شرائح النخب الثقافية، كان أبناء هذه الأسر والقبائل غالباً من العلماء الذين حظوا بالتقدير والاحترام والذين لم يكن يربطهم بالسلطة سوى الوازع الديني الروحي وقد كان دافعهم الأساسي وراء هذه العلاقة هو طلب الحماية ضد القوات الأجنبية الصليبية ولم يكن اعتلاء المناصب العليا ونيل المكانة الشرفية من طرف السلطة شغلهم الشاغل بل إن الحركية السياسية التي شهدتها الجزائر في فترة الدايات والذين اهتموا بتقريب هذه الفئة منهم لم تكن سوى لحظات لخلق طبقة من الوسطاء السياسيين لديها فمنهم من استجاب لهذا التوجه ومنهم من بقي محافظاً على قيمه التقليدية التي تربي وترعرع عليها ويعود ذلك بدون شك إما خوفاً من قوة الحكام واستبدادهم وإما إلى انجرافهم نحو كسب تدعيم مادي ومعنوي من قبل السلطة لنيل المناصب الراقية في الدولة كما أسلفنا سابقاً، كما يعود عدم انجراف بعض الفئات نحو هذا التوجه إلى نشوء أفكار تجديدية حاولت قدر المستطاع تجاوز البؤرة السياسية إلى المجال الثقافي.

فلقد أشرنا إلى أن بعض من أبناء القبائل والأسر الشريفة تصدرت مناصب مميزة آنذاك وشاعت أسماؤها في مجتمع الجزائر العثمانية بقوة، وإذا كانت هذه الميزة قد اكتسبتها نتيجة نفوذها الواسع والمرموق وسط السكان، فإنه من الملفت للانتباه توطد أركان صنف آخر من بعض أبناء الأسر التي اشتهرت بأفكارها النقدية كما أسلفنا

في المجتمع، فمن الذين بلغ نفوذهم في هذه الحركة التجديدية آنذاك شخصية محمد ابن العنابي الذي» عاش عمرا حافلا بالإنتاج العلمي والاضطراب السياسي» (أبو القاسم سعد الله، 1990: 21) (أنظر التعليق رقم4) فأسرته عريقة في تاريخ عنابة والجزائر وفي تولية المناصب الدينية الرفيعة (حفاوي بعلي، 2016: 458) إذ اتسم فكره بالحدثة في جميع مجالات الحياة الأمر الذي أهله لتولية وظائف متعددة في السلطة حيث تولى منصب الإفتاء على المذهب الحنفي وتولى منصب القضاء و الكتابة والسفارة في مهمات سياسية إلى المغرب الأقصى وإلى إسطنبول (أبو القاسم سعد الله، 1990: 15) وقد تجلّى كمتقف مميز إبان فترة الدايات منذ صدور كتابه المهم «السعي المحمود في نظام الجنود» (أنظر التعليق رقم05) عام 1826 الذي دعا فيه إلى التجديد والنهضة بالجزائر، وذلك ما ورد في مقدمة كتابه التي يقول فيها: «إنه لما حدث في هذه الإعمار الآخرة تطاول طغاة الأمم الكافرة بترتيب أجنادهم على طريقة محكمة ابتدعوها وتدريبهم على فنون حيل اخترعوها» وجاءت خاتمة الكتاب كماليلي«فينبغي لمن له مظلمة أو حق قبل جندي خرج غازيا أن يسامحه ويعفو عنه حتى لا يعود ضرر مظلمته على الإسلام والحمد لله» (أنظر التعليق رقم06) (محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري، ب س)

ولو كانت دراستنا هذه سياسية لرصدنا فيها جميع القبائل والأسر الشريفة التي كان لها نفوذ سياسي في المجتمع لكننا اكتفينا بإعطاء بعض النماذج منها لتقريب الصورة من الأذهان والحق أن الدراسات أتت بما يكفي من سرد موقف القبائل والأسر النافذة في المجتمع من السلطة العثمانية ووصفت لنا الوقائع السياسية التي حدثت خلال هذه الفترة بقوة.

المرابطون ورجال التصوف:

لقد اتفقت المصادر التاريخية من الذين عايشوا الأحداث في الذهاب إلى أن نظام السلطة كان يعتمد اعتمادا كلياً على قوة المبالغة

في استشارة المرابطين ورجال الدين، ولعل تقديس السلطة لأضرحة العلماء تجسد إلى حد بعيد تلك المعتقدات التي تبنتها العامة قبل ذلك بهدف كسب ولأئهم، إذ يورد لنا محمد الشريف الزهار كيف أن السلطة اعتبرت الأضرحة كمؤسسة طقوسية وأبدعت في الوفاء لذكرى العلماء وعلى رأسهم حسن باشا 1791م الذي كانت الأضرحة ثقافته الروحية والجهادية قبل التوجه إلى أي غزوة فيتبرك بضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي وسيدي علي العباسي (أحمد الشريف الزهار، 1974: 91)، وكتب أبي القاسم زياتي في رحلته وصفا دقيقا يرصد فيه أهم الأبنية من مساجد وقياب التي أقدم حسن باشا على بناءها عام 1796م إذ يقول «...وجعل لهذه القبة سراجيب بأنواع البلور الذي لم يرى في عصر من العصور...» (أبو القاسم بن أحمد الزياتي، 1991: 141-142) ونفس الفكرة تطرق إليها Venture De Paradis في كتابه (Venture De Paradis، 1898: 101) Alger_au_XVIIIe_siècle ونستطيع أن نقول أيضا أن الداي محمد بكداش كانت له نظرة قدسية لطبقة المرابطين لدرجة أنه بنا لهم زاوية عام 1709م، كما بنا الباي محمد الكبير مشهد للولي الصالح الذي اشتهرت ولايته محمد بن عودة دفين فليته نواحي غليزان وبنى ضريح أحمد بن يوسف دفين مليانة (ابن سحنون الراشدي، 2013: 141)، حيث انبثق بناء هذه الأضرحة من نظرة السلطة التقديسية لأضرحة العلماء، إذ قال حمدان خوجة بشأن ذلك في كتابه المرأة: «...لم يكتف الأتراك بأن فرضوا على أنفسهم احترام هؤلاء المرابطين، وإنما صاروا يقدمون لهم أكبر الامتيازات وأثمنها، وصارت أماكن سكنهم وضرائحهم بعد الموت مقدسة» (حمدان بن عثمان خوجة، 1982: 171-172).

هذا، وقد نشأت علاقة تحالفية بين السلطة وبعض عائلات المرابطين مثل عائلة الشيخ العلامة عبد الرحمن الأخضر (أنظر التعليق رقم 07) حيث قام الحاج أحمد باي قسنطينة عام 1830م بالختم على وثائق تنص على ضرورة احترام وتوقير العامة لعائلته بعد وفاته وتحتوي هذه الوثائق على منظومات شعرية تحمل عنوان

السلم في المنطق (أحمد داوود، 2017: 152) الذي ترجمه المستشرق الفرنسي لوسيان سنة 1921 وقد عده من أعظم الكتب العالمية لما قارنه بكتاب «حديقة الزهور الإغريقية» لمؤلفه كلود لانسلوا ويأتي مطلعه :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَدْ أَخْرَجَا نَتَائِجَ الْفِكْرِ لِأَرْبَابِ الْحِجَا

(أحمد داوود، 2017: 152)

أما خاتمة الوثائق فهي:

وَحَطَأُ الْبُرْهَانَ حَيْثُ وُجِدَا فِي مَادَّةٍ أَوْ صُورَةٍ فَاَلْمَبْتَدَأُ

فِي اللَّفْظِ كَاشِتِرَاكِ أَوْ كَجَعْلٍ ذَا تَبَايُنٍ مِثْلَ الرَّدِيفِ مَأْخَذَا

(أحمد داوود، 2017: 152)

هذا، وقد تحالفت السلطة كذلك مع عائلة الملياني إذ تذكر المصادر التاريخية أحداث عن أتباع أحمد بن يوسف الملياني (حفناوي بعلي، 2016: 103) الذي يعتبر من رواد الطريقة الشاذلية، حيث كان هذا الأخير حليفا للعثمانيين وقد اشتهر بمواقفه السياسية ضد الوجود الإسباني بالجزائر وقد تعهدت السلطة بعدم التعرض له ولنسله من بعده طيلة حكمها بالجزائر (أبو القاسم سعد الله، 1998: 466).

إذن مبالغة السلطة في تقديس أضرحة العلماء واستثارة عائلات المرابطين جعلها تشكل حضور قوي في نفوس المحليين، لأن هذه الظاهرة هي من العادات التي كانت تنفرع دائما من المعتقدات الشعبية التي يسير على نمطها المجتمع، فالاعتقاد في الانتصار في المعارك أثناء التردد على الأضرحة هو تمثيل سياسي اجتماعي كان يفضي برمزية العلاقة بين السلطة وهذه الطبقة في إطار طقوسي غريب (ياسين بودريعة، 2013: 363-383)، وبصفة عامة فإن هذا النوع من الممارسات هو بمثابة خطاب الذي غالبا ما تستعمله السلطة للسيطرة على الطبقة الشعبية.

ولقد شاع عن بعض البايات أنهم كانوا يتمردون على رجال الدين وخصوصا المرابطين وسرعان ما يتراجعون عن تمردهم حفاظا على أمنهم واستقرارهم، فالتمثل الذي أوردناه سلفا لم يمتد عند البعض الآخر وفي هذا الإطار نريد أن نرصد هنا نموذجا عن ما ذكرناه إذ كان باي قسنطينة حسن باي بن حسين المدعو بوحناك 1736-1754م لا يعترف بفئة المرابطين والذي عرف عنه أنه كان متمردا جدا عليهم(حفاوي بعلي، 2016: 420) ويشير أحمد مبارك بشأن ذلك في كتابه قائلا (الحاج أحمد بن المبارك بن العطار، 2011: 129): «كان رجلا ذاهبية، صعبا لا يقول بولي ولا يرى جاها لأحد بشدة نفسه» ويحدثنا ذات المؤرخ في كتابه في جمل قصيرة وعبارات مقتضبة عن تراجع الباي بوحناك عن تمرده لما التقى بالشيخ سليمان الشليحي (حفاوي بعلي، 2016: 420) (أنظر التعليق رقم 08) وهو مرابط فوقعت له معه كرامة ربانية فما كان عليه إلا أن أسلم لهذا النوع من الفئات، إذ يصف احمد مبارك السبب في هذا التراجع فيقول: «فلما تكلم معه أراد أن يغلط على الشيخ، ثم نظر فإذا أهوال عظيمة أحاطت به، وشاهد ما لا طاقة له على رؤيته» (الحاج أحمد بن المبارك بن العطار، 2011: 129) فاستعظمه الباي ومنح له بعض الامتيازات حيث أنشأ له زاوية في مكان يسمى أولاد عبد النور وأعفاه من الضرائب عليها وبنى له بيتا في مكان يسمى الأربعين شريف (الحاج أحمد بن المبارك بن العطار، 2011: 129)

لكن ما يجب ذكره هنا هو أن السلطة وظفت الدين في خدمتها إذ شكلت هذه المؤسسات الطقوسية قوة في خدمة الطبقة الحاكمة ومصلحتها، ففي نظرها يؤدي تقديس العلماء وتقريبهم الى ترسيخ دورها في التحكم والسيطرة على مختلف الطبقات الاجتماعية مما زاد من تعاضد هيمنة الطرقيين وشيوخ القبائل المحلية على المجتمع لأنهم كانوا الأداة الفعالة في تكريس شرعية السلطة العثمانية بالإيالة، فحسب ماسلف ذكره قد ضمنت هذه الأخيرة بسط نفوذها على المحليين.

الخاتمة

إن التمثلات السياسية للسلطة والنخب الثقافية في مجتمع واحد بوجه عام، هي تمثيلات علائقية تشكل تحديات كبرى في إطارها الزماني خاصة، لأنها تقتضي الإلمام بأبعاد متعددة لفهم خلفيات الوجود العثماني بالجزائر، و الصراع على شرعية هذا الوجود بشقيه الروحي و الزمني.

ومهما بذلنا من جهود لنتمين هذه العلاقة إلا أن الوقائع تثبت عكس ذلك، حيث تمكنت السلطة العثمانية من اقتحام كل أجهزة الدولة واحتكار السلطة السياسية في الإيالة، فلا شك أن هذه الرؤى توضح أن النخبة التي حضيت باهتمام الدايات تعكس توجه السلطة في استحداثها وبالتالي السيطرة عليها، إذ إذا خضع السكان المحليون لتوجهات هذه الفئة، فإنهم بذلك يدخلون تحت نفوذ السلطة تماشياً مع طموحاتها ورغباتها.

التعليقات والشروح

1 - فقيه مالكي، كاتب، شاعر وأديب من أسرة توارثت القضاء عاش في القرن 17م

2- هو من بطن عرف بأولاد القاضي لتولي سلفه خطة القضاء قديما بسجل ماسة واشتهرت قبيلته بأولاد أبي المحلي وقد كان عالما فقيها متصوفا

3- أصل سلفهم من الأندلس وهم من بني حمود الذين كانوا ملوكا بها كما أفاده صاحب الفتح وهم لهذا العهد ما خرجوا عن طريقة أهل الأندلس من تعاطي الشعر والتأنق في الكلام وارتكاب أبواب الفصاحة والتطاول في المحافل والتوغل في رفاهة الملبس والمركب والمأكل والمشرب. أنظر بلهاشمي بن بكار، مجموع

النسب و الحسب و الفضائل والتاريخ و الأدب في أربعة كتب،
مطبعة ابن خلدون، الجزائر، 1961، ص333.

4- العبارة قمت بنقلها مباشرة عن أبو القاسم سعد الله، محمد بن
العنابي رائد التجديد الإسلامي، ص21.

5- المخطوط متاح على موقع مخطوطات الأزهر الشريف مصر
<http://www.alazharonline.org>

6- رقم النسخة 333485، عدد الأوراق 17 ورقة. وهو متاح على
موقع مخطوطات الأزهر الشريف مصر
<http://www.alazharonline.org>

7- ولد الشيخ عبد الرحمن الأخضرى سنة (920 هـ/ 1514 م) ببلدة
بنطيوخ التي تبعد عن بسكرة بحوالي (30 كم) من عائلة شريفة
عرفت بالعلم والتقوى. والده العالم المدرس محمد الصغير وأخوه
الأكبر أحمد الأخضرى كان عالما ومدرسا أيضا أخذ عن كليهما الفقه
وعلوم اللغة وعلم المواريث بعد أن حفظ القرآن وأتقن رسمه وتلاوته
ثم واصل تعلمه بقسنطينة ثم جامع الزيتونة.

8- هو من الشيوخ الذين تتلمذ على يدهم أحمد البوني أنظر حفناوي
بعلي، الرحلات الحجازية المغربية، ص420

المراجع:

- ابن المفتي حسين بن رجب شاوش. (2009). تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها (المجلد 1). الجزائر: بيت الحكمة.
- ابن سحنون الراشدي. (2013). الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني. الجزائر: المعرفة للنشر و التوزيع.
- أبو القاسم بن أحمد الزياتي. (1991). الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا. الرباط: بدون.
- أبو القاسم سعد الله. (1990). محمد بن العنابي رائد التجديد الإسلامي. الجزائر: دار الغرب الإسلامي.
- أبو القاسم سعد الله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- أحمد الشريف الزهار. (1974). مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

- أحمد داوود. (2017). **العقد الجوهري في التعريف بالقطب الشيخ سيدي عبد الرحمن الأخضرى**. الجزائر: دار الكتب العلمية.
- الحاج أحمد بن المبارك بن العطار. (2011). **تاريخ بلد قسنطينة**. قسنطينة: دار الفائز للطباعة والنشر والتوزيع.
- الطيب بن مختار الغريسي المختاري. (1921). **القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم**. الجزائر: مطبعة ابن خلدون.
- بسم العسلي. (1986). **الجزائر والحملات الصليبية**. الجزائر: دار النفائس.
- بن عودة المزارى. (1996). **طلوع سعد السعود : في أخبار وهران والجزائر**. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- حفناوي بعلی. (2016). **الرحلات الحجازية المغربية**. الجزائر: دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع.
- حمدان بن عثمان خوجة. (1982). **المرآة**. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- عادل النويهض. (ب س). **معجم أعلام الجزائر**. لبنان: مؤسسة نويهض الثقافية.
- عائشة بن نور. (2014). **موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين**. بدون منشورات الحضارة.
- عبد القادر بن عبد الله بن محمد المشرفي الغريسي. (ب س). **بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسمان بوهرا من الأعراب كبني عامر**. بيروت: دار مكتبة الحياة.
- لزغم فوزية. (2013-2014). **البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني**. جامعة وهران 1: كلية العلوم الإنسانية و العلوم الإسلامية.
- لزغم فوزية. (2013). **التعريف بوثنانق عائلة الكتروسي المازونية**. المجلة الجزائرية للمخطوطات ، صفحة 117.
- لعباسي محمد. (ب س). **تعيينات آل الكتروسي في المناصب الدينية بمازونة على العهد العثماني**. المجلة الجزائرية للمخطوطات، الصفحات 90-105.
- محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري. (ب س). **السعي المحمود في ترتيب العساكر والجنود**. مصر: الأزهر الشريف.
- ناصر الدين سعيدوني. (2009). **ورقات جزائرية**. الجزائر: دار البصائر.
- ياسين بودريعة. (2013). **المعتقدات في كرامات الأولياء بمدينة الجزائر في العهد العثماني**. (كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، المحرر) مجلة العلوم الإنسانية، الصفحات 363-383.
- Dubois-thenville. (1929). **mémoire sur alger1809**. paris: E.Esquer.
- Nahoum Wissmann. (1964). **les janissaires**, etude de l'organisation militaire des ottomans .paris: librairie orient.
- venture de paradis. (1898). **Alger au XVIIIe siècle**. Alger: E.Fagnan.

- للإحالة على هذا المقال:

- طوبال فطيمة الزهراء، (2019)، «التمثلات السياسية للنخب الثقافية والسلطة بالجزائر في عهد الدايات 1671- 1830». المواقف، المجلد: 14، العدد: 02، جوان 2019، ص. ص. 26-44.
-